أدب الفقهاء

— ٤ —

فقهاء المغرب والأندلس

ونخلص لذكر فقهاء المغرب والأندلس ، ونبدأ للمناسبة الآنفة الذكر بأشهرهم اسماً وأكبرهم علماً وهو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي ، إمام أهل الظاهر بعد مؤسس هذا المذهب داود الظاهري المشهور .

ابن حزم

قال صاعد الأندلسي في حقه : « كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ، ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار ، وأخبرني ابنه أبو رافع الفضل ابن علي : أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تآليفه نحو أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة (١) ومن أشهر كتبه المُحَلّى أبان فيه عن علم غزير وتعمق في فهم أحكام الشرع وأدلتها من الكتاب والسنة ، وهو مطبوع في أحد عشر جزءاً . وله أيضاً كتاب الإحكام في أصول الأحكام نفيس جداً . وهو مطبوع أيضاً . ومن مؤلفاته المشهورة في تاريخ الأديان والعقائد كتاب الفِصَل في الملل والأهواء والنحل وهو معتمد في هذا الباب .

---

(١) الصلة لابن بشكوال ص ٤٠٩ طبع مدريد . وفيه بعض مخالفة لما في طبقات الأمم لصاعد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما مقامه في الأدب والشعر ، وهو موضوع بحثنا هذا ، فقد قال فيه الحُمَيْدي صاحب جذوة المقتبس : « وكان له في الآداب والشعر نَفَس واسع وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير . وقد جمعناه على حروف المعجم . » ومما نشد له من شعره :

لئن أصبحتُ مرتحلاً بشخصي فروحي عنـــدكم أبداً مقيم
ولكن للعيـــان لطيفُ معنى له سأل المعاينـــةَ الكليم

ولا يخفى ما في هذين البيتين من دعم الشعور العاطفي بالمعنى الديني ، المستمد من قصة موسى عليه السلام وقوله في مناجاة الحق سبحانه وتعالى : (رب أرني أنظر اليك) والتعليل لهذا الطلب الجَرِيء بما لا يتنافى مع قوة الإيمان ولا يخامره أدنى شك ، ولذلك كان لهذين البيتين عند العلماء والمتصوفة قيمة كبيرة ، وصدى لا يزال يتردد في الكتب والمجالس كلما سنحت المناسبة للخوض في هذا الموضوع . ولا تقِلُّ قيمتُها عند الأدباء عن قيمتها عند العلماء لأنها من حيث السبك والصياغة لا غبار عليها ، وأما المعنى فانه فريد لا مثيل له ، غايةُ الأمر أن أنظار العلماء والأدباء تلاقت عندها لما تضمناه من تعبير بارع عن مقصد كل من الطرفين .

ونظيرُها في استيحاء النصوص الدينية قول أبي تمام في سينيته المشهورة في مدح المعتصم :

لا تنكروا ضربي له مَن دُونَه مَثَلاً شَرُوداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقلَّ لنوره مَثَـــلاً من المشكاة والنبراس

ومع توارد الفقيه والشاعر الكبير على الاستقاء من معين الدين في أبياتها هذه ، مما يؤكد أن ذلك لا يتعارض وأصالةَ الشاعرية ، فان الانصاف يقتضينا أن نقول ان بيتي ابن حزم أرق معنى وألطف مساقاً ، وهما فوق ذلك أكثر سيرورة من بيتي أبي تمام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن شعر ابن حزم قولُه وضمّنه الإشارةَ إلى مذهبه :

وذي عذَل فيمن سباني حسنُه ... يُطيل ملامي في الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيرَه ... ولم تدر كيف الجسمُ أنتَ عليل
فقلت له أسرفتَ في اللوم فاتئد ... فمنـــديَ ردٌ لو أشاء طويل
ألم تر أني ظـــاهري وأنني ... على ما بدا حتى يقوم دليـــل

وما أحسن هذا القول ، وألطفَ الإشارة هنا الى المذهب ، لا سيما اذا علمنا أن للأبيات حكاية ذكرها ابن حزم نفسُه في كتابه طوق الحمامة ، وأن المحاورة فيها كانت مع الحافظ أبي عُمَر بن عبد البر ، وهو من أئمة مذهب مالك ، فمن البراعة الاحتجاج في هذا المقام الأدبي بالمذهب الفقهي الذي يأخذ به الشاعر ، والمخالفُ كان من غزارة العلم وسعة الأفق بحيث يتقبل هذا الاحتجاج ويُميرُه على أنه من اللطائف الأدبية التي لا مماحكة فيها . وهكذا كان القوم على إمامتهم في العلم والدين يتعاطون كؤوس الأدب ممزوجة بالنكت البارعة والتلميحات اللطيفة ولا يرَوْن في ذلك حرجاً ، ولا يستطيع أحد أن يلمزهم بسوء .

وألف ابن حزم كتابه طوق الحمامة في الحب وصفاته ، ومعانيه وفلسفته ، والمحبين وما يعرض لهم ، وأحوالهم وأخبارهم ، وهو وإن قال أن تأليفه له كان باقتراح أحد أصدقائه ، فاننا نرى أنه ربما تشجع على ذلك بما عُلِم من تأليف وَلَد إمامِه لكتاب الزهرة في الموضوع على ما مَرّ ذِكْرُه . وأيّاً كان الأمر ، فان طوق الحمامة يختلف عن كتاب الزهرة اختلافاً كبيراً . إنه مَلِيء بذكر تجارب ابن حزم نفسه في ميادين الحب والغرام ، ومَلِيء كذلك بأشعار ابن حزم التي نظمها في الموضوع ، بل ليس فيه شعر لغيره إلا القليل النادر ، وذلك ما جعله تحفةً أدبية نادرةَ المثال ، وقصةً غرامية متسلسلةَ الأحداث والوقائع ، تغري قارئها بالانكباب عليها ، وخصوصاً وهو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يعلم أن بطلها علَمٌ من أعلام الفقه والدين ، وعبقري من عباقرة الفكر والفلسفة ، وكان في وقت ما وزيراً وهو ابنُ وزير ، فقد توفرت كل الأسباب لجعل هذا الكتاب قطعة فنية خالدة . وذلك من أعظم الأدلة على أن للفقهاء جولات موفقة في ميادين الأدب والشعر فاتت كثيراً من الشعراء والأدباء .

ومما جاء في طوق الحمامة من شعره في الحب الطاهر قوله :

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى ... وسيان عندي فيك لاحٍ وساكت
يقولون جانبتَ التصاون جملة ... وأنت عليهم بالشريعة قانت
فقلت لهم هذا الرياء بعينه ... صراحاً وزي للمرائين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد ... وهل منعُه في محكم الذكر ثابت
اذا لم أواقع محرماً أتقي به ... مجيءَ يوم البعث والوجهُ باهت
فلست أبالي في الهوى قولَ لائم ... سواء لعمري جاهر أو مخافت
وهل يلزم الإنسان إلا اختيارُه ... وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت

وهو احتجاج قوي في الشعر كاحتجاجه في مسائل الفقه وخلاف الأئمة ، مما يدل على عارضته القوية وملكته الراسخة .

ومنه قوله في مليحة شقراء :

تعيبونها عندي بشُقْرة شعرها ... فقلت لهم هذا الذي زانها عندي
يعيبون لون النور والتبر ضلة ... لرأي جهول في الغواية ممتد
وهل عاب لون النرجس الغض عائب ... ولون النجوم الزاهرات على البعد
وأبعد خلق الله من كل حكمة ... مُفضلُ جرم فاحم اللون مسوَّد
به وُصفت ألوانُ أهل جهنم ... ولِبْسة باك مثكل الأهل محتَد
ومُذْ لاحت الرايات سوداً تيقنت ... نفوس الورى أن لا سبيل الى الرشد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فهذه الأبيات تنبئ عن ذوق مدني مهذب كما تنبئ عن شاعرية بليغة لا يرقى اليها نقد من جهة المعنى ولا من جهة االلفظ . وما أملح قوله : « فقلت لهم هذا الذي زانها عندي » والغريب أن ابن حزم يذكر في الفصل الذي أورد فيه هذه الأبيات أن ذلك أي حبه للشقرة كان طبيعة له وميلاً غريزياً فيه ، فهو يعبر عن شعور صادق وحب راسخ وليس كلامه صنعة وتفنناً في القول كما قد يلوح . وأغرب من هذا هو البيت الأخير في القطعة ، أتراه نزعةً سياسيةً مَرْوانية لم يُغفِل ابنُ حزم الإفصاحَ عنها وقد واتته المناسبة في هذه الأبيات العاطفية ؟

لعلنا قد مددنا النفَس أكثر من اللازم في الحديث عن أدب ابن حزم ، ولكنه يستحق ذلك ، وما يمنعنا من الإطالة إلا ضيق المقام ومراعاة المناسبة لما تحدثنا به عن غيره . وكانت وفاته رحمه الله سنة ٤٥٦ .

أبو الوليد الباجي

هو القاضي أبو الوليد سليمان بن خَلَف الباجي ، نسبة الى باجة الأندلس ، لا باجة افريقية . كان قريع ابن حزم في الفقه والعلم ، وكان على مذهب مالك ، وهو الذي تصدى لابن حزم بعد ما قصر فقهاء الأندلس عن مجادلته فناظره ونقض كثيراً من حججه . وقال عنه القاضي أبو علي بن سُكَّرة : « ما رأيت مثله في سمته وهيبته وتوقير مجلسه وهو أحد ئمة المسلمين » وناهيك بأنه روى عنه حافظا المغرب والشرق أبو عمر بن عبد البر ، وأبو بكر الخطيب . ألف أبو الوليد كتاب الاستيفاء في شرح الموطأ ، كتاب حفيل كثير العلم لا يدرك ما فيه إلا من بلغ درجة مؤلفه في العلم ، قاله ابن فرحون في الديباج ثم اختصره في كتاب سماه المنتقى ، وهو مطبوع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

في سبعة مجلدات . وله غيرهما من الكتب القيمة النافعة . ومن شعره :

أسَرُّوا على الليل البهيم سُرَاهم فنمّت عليهم في الشمال شمائل
متى نزلوا ثاوين بالخيف من منى بدت للهوى بالمأزمَيْن مخايل
فالله ما ضمّت مِنىً وشعابها وما ضُمّنَتْ تلك الرُّبا والمنازل
ولما التقينا للجمار وأبرزَت أكف لتقبيل الحصى وأنامل
أشارت الينا بالغرام محاجرٌ وباحت به منا جسوم نواحل

وهي أبيات ذات نفَس أعرابي تعبر عن حب دفين ، وإن دارت الناس عنه بالحديث عن الحجاز والمشاعر المشهودة فيه . وفيها مع ذلك صنعة بديعية لطيفة إلا أنها تكاد تكون من وحي الطبع لا تعمُّل فيها ، فاجتمع لها بذلك حسن السبك وبلاغة المعنى ، وماذا يُطلَب من الشاعر الموهوب أكثر من ذلك ؟ . .

ومما اشتهر من شعر الباجي قوله :

مضى زمنُ المكارم والكرام سقاه الله من صَوْب الغَمام
وكان البرُّ فعلاً دون نطق فصار اليوم نطقاً بالكلام

وذيله بعض الفقهاء أيضاً لما استشرى الفساد بقوله :

وزالَ النطقُ حتى لست تلقى فتىً يسخو بردِّ للسلام

ثم ذيله فقيه آخر وقد طمّ الوادي على القَرِيّ فقال :

وزاد الأمر حتى ليس إلا سخي بالأذى أو بالملام

ولا يجد الناقد الأدبي ما يأخذ على هذه الأبيات ، وكلها لفقهاء شعراء ، بل انه لو أنصف لجعلها في مستوى القمة من الصناعة الشعرية وخصوصاً بيتي صاحبنا أبي الوليد الباجي ، ولذلك جرت على ألسنة العلماء والأدباء معاً ، وكان مشائخنا رحمهم الله كثيراً ما يرددونها في المقامات التي تستدعي انشاد مثلها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وللباجي أيضاً هذان البيتان المشتهران في الزهد والحكمة :

اذا كنت أعلم علماً يقينا بأن جميع حياتي كساعة
فَلِمْ لا أكونُ ضَنِيناً بها وأصرِفها في صلاح وطاعة

أبو بكر بن العربي

هو الإمام القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المَعَافِري الاشبيلي . حلاّه ابنُ بَشكوال في كتابه الصلة ، بقوله « الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها » أخذ ببلده ورحل الى المشرق فلقي أبا حامد الغزالي وأبا بكر الشاشي وغيرهما وعاد بعلم غزير . وكان فصيحاً أديباً شاعراً كثير الخبر مليح المجلس . وله تآليف كثيرة منها أحكام القرآن في مجلدين مطبوع وهو عظيم الفائدة ومنها عارضة الأحوذي في شرح صحيح الترمذي مطبوع أيضاً . وكتاب العواصم من القواصم مطبوع ، وهو دليل على بُعد غَوره وتفننه في علوم الفقه والكلام والتصوف . ومن شعره المشهور قوله وقد ركب مع أحد أمراء الملثمين ، وكان الأمير صغيراً فهز عليه رمحاً كان في يده مداعباً له :

يهزُّ عليَّ الرمحَ ظبيٌ مهفهف لَعُوب بألبـــاب البرية عابث
ولو كان رمحاً واحداً لاتّقيتُه ولكنه رمح وثان وثالث

وهما بيتان سائران يجريان كثيراً على ألسنة الأدباء في مجال الاعتذار عند غلبة الحوادث . قال المقري في نفح الطيب : « وقد اختلف حذاق الأدباء في قوله : (ولكنه رمح وثان وثالث) ما هو الثاني والثالث ؟ فقيل القد واللحظ ، وقيل غير ذلك » .

وله وهو معنى بديع :

أتتني تؤنبـــني بالبكاء فأهلاً بها وبتأنيبهـــا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تقول وفي نفسها حسرة أتبكي بعين تراني بهـا
فقلت اذا استحسنت غيركم أمرت جفوني بتعذيبهـا

قال في النفح : « ومن شعر ابن العربي مما نسبه اليه الشيخ أبو حيان :

ليت شعري هل دروا أي قلب ملكوا
وفـؤادي لو درى أي شعب سلكوا
أتراهم سلمـوا أم تراهم هلكوا
حارَ أربابُ الهـوى في الهوى وارتبكوا »

وهي أبيات ذات نفَس صوفي أكسبها رقة وطلاوة ولا يستطيع ناقد أن يلمزها بأنها شعر فقيه ، وهو يعني أنها ليست بذاك من حيث الصنعة البيانية .
توفي ابن العربي رحمه الله سنة ٥٤٣ وقبره بفاس معروف .

القاضي عياض

أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليَحصُبي السبتي ، إمام وقته في الفقه والحديث وعلومها والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم . وصفه ابن الأبار فقال : « كان جمال العصر ومفخر الأفق وينبوع المعرفة ومعدن الإفادة ، واذا عدت رجالات المغرب فضلاً عن الأندلس حسب فيهم صدراً » وقد ألف فيه العلامة المقري كتاب أزهار الرياض في أربعة مجلدات وهو معروف ، طبع منه ثلاثة مجلدات ، وللقاضي عياض تصانيف سارت بها الركبان ، منها كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى . أبدع فيه كل الإبداع واكتسب شهرة في العالم الإسلامي كاد يصير بها من الكتب المقدسة نظراً لشرف موضوعه ، ومنها كتاب مشارق الأنوار في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم وضبط الألفاظ والتنبيه على الأوهام والتصحيفات وضبط أسماء الرجال وهو كتاب فريد لا نظير له . ومنها كتاب ترتيب المدارك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك ويُعرف عادة بالمدارك ، وغير هذه من مؤلفاته المحررة العظيمة الفائدة في الفقه والحديث وفنونهما وفي التاريخ والأدب وكانت له ملكة قوية في الإنشاء ، وقريحة سيالة في الشعر . ومن قوله في خامات زَرْع بينها شقائق النعمان هبت عليها رياح :

انظُرْ الى الزرع وخاماتِه تحكي وقد ماستْ أمامَ الرياح
كتيبةً خضراء مهزُومـــةً شقائقُ النُّعمان فيها جِراح

وهو بديع . والخامةُ القصبة الرطبة من الزرع .

وله في وداع قرطبة :

أقول وقد جد ارتحالي وغردت حُداتي وزُمَّتْ للفراق ركائبي
وقد غَمِيت من كثرة الدمع مقلتي وصارت هواء من فؤادي ترائبي
ولم تبق إلا وقفة يستحثها وداعيَ للأحبــاب لا للحبائب
رعى الله جيراناً بقرطبةَ العُلا وسقَّى رُباها بالعهاد السواكب
وحيّا زماناً بينهم قد ألِفْتُه طليقَ المحيا مستلانَ الجوانب
أإخواننا بالله فيها تذكروا معاهد جار أو مودة صاحب
غدوتُ بهم من برِّهم واحتفائهم كأنيَ في أهلي وبين أقاربي

ولست بحاجة الى التنبيه على ما في هذه الأبيات من دقة الوصف لحركة السفر ، وشدة اللوعة لفراق الأحبة ـ وهذا الاستدراك الجميل والحَذِر في قوله (للأحباب لا للحبائب) خشيةَ أن يُفهم ما لا يليق بكرامته العلمية ، وهو في دار الغربة ، مما يدل أعظم الدلالة على حسن تصرف الشاعر وتملكه لناصية التعبير عما في ضميره وأدائه للمعنى المراد بكل سهولة وبكل براعة أيضاً . وتلك هي الغاية التي يتطلع اليهـا فحول الشعراء حتى من غير أصحابنا الفقهاء . وقد توفي القاضي عياض سنة ٥٤٤ ودفن بمراكش وقبره بهـا معروف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

فهؤلاء أربعة فقهاء من المغرب والأندلس كلهم قالوا الشعر الجيد الذي لا يقصر عن شعر أي شاعر مجيد ، غير فقيه ، سواء في الشكل أو المضمون ، وإذا أضفنا اليهم أبا الفضل بن النحوي وهو الذي بُنِيَ هذا البحث على شعره ، وقد قدمنا نماذج منه ، كانوا خمسة ، ونحن انما اقتصرنا على هذا العدد القليل رغبة في الاختصار ومناسبة العدد الذي ذكرناه من فقهاء المشرق الشعراء ، وإلا فهم أكثر من أن يحصيهم بحث مقتضب مثل هذا .

عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net